حين يرحل الضوء ويبقى الأثر

سطور في وداع صديق العمر **عبد الغني عرابي**، بعد أن غيّبه الموت تاركاً في القلب فراغاً لا يُملأ، وذكرياتٍ تتردّد في الوجدان..

أبا العلاء، أيها الراحل العزيز،

مرّ أسبوع على رحيلك، وما زلتُ أعيش صدمة الفقد كأنها البارحة.
جرحٌ في الروح لا يندمل، وألمٌ يتسلّل في مسارب النفس كلّما خيّل إليّ أنك هناك، تبتسم كما كنت، وتفتح لي ذراعيك كعادتك كلّ لقاء.
يطوّقني شريط الذكريات، فيمتزج الحنين بالوجع، وتغمرني غصّة لا تبرح القلب.

منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، في محلة برج أبي حيدر أحد أحياء بيروت العريقة، شاء القدر أن يلتقي شابّان:
أحدهما يدير محلًا تجاريًا، والآخر يشرف على تنفيذ بناءٍ في الجوار.
تعارفا، ومن اللقاء الأول شعر كلٌّ منهما أنّه يشبه الآخر في شيءٍ ما، شيء لا يُقال بل يُحَسّ.
توطدت بينهما المودّة سريعًا، ونمت شجرة الصداقة على ضفاف الإخلاص، حتى غدت باسقة الأغصان وارفة الظلال. ثم شاءت ظروف العمل أن تُفرّق بينهما، فقلّت اللقاءات، لكنّ جذوة الودّ ظلّت مشتعلة لا تطفئها المسافات ولا يُبهت ألقها الزمن.
لم يكن هذان الشابان سوى **أنت وأنا.**

ظلّت الصداقة على صفائها حتى منتصف العقد الماضي، يوم عاد الشمل يجمعنا من جديد.
توالت اللقاءات والأعمال المشتركة والزيارات الودّية، فاستعدنا ما سُلب منّا من سنوات الغياب القسري.
ثم جاء الوباء، ففرض علينا – كما على الناس أجمعين – تباعدًا قاسيًا، تبعه تباعدٌ آخر أشدّ قسوة، حين باغتك المرض الخبيث وأدخلَك عالم الألم والمعاناة.

وكأنّ القدر كان يُطهّرك – وأنت الطاهر – قبل أن تلقى وجه ربّك نقياً كشعاع الصبح، صافياً كقطرة الندى.

كم وددتُ لو كنتُ بقربك حينها، أشاركك الصبر وأخفّف عنك ما استطعت من ثقل الوجع.

تعرّفت إلى **أبي العلاء** فعرفت فيه رقة النفس وطيب الخلال.

كان سمحًا، وديعًا، ليّن الجانب، قويّ العزيمة.

ما لقيتُه يومًا إلا مبتسم الثغر، بهيّ المحيّا، يحمل في ملامحه طمأنينة القلب وصفاء السريرة.

ما سمعت منه لفظًا جارحًا، ولا شهدتُ فعلًا يخالف الذوق أو يخلّ بمروءة.

وإذا كان المرء – كما قيل – بأصغريه: قلبه ولسانه، فقد كان أبو العلاء سليم القلب، زكيّ اللسان، وبهما معًا بلغ أرفع مراتب الخُلُق.

برحيلك خسرت الصديق الذي جمع بين رهافة القلب ورجاحة العقل، بين صدق الودّ ونبل الخُلق.

لكنك وقد غادرتَ جسداً، فقد بقيتَ في الذاكرة ظلاً من دفءٍ وضياء، وفي القلب نبضاً صامتاً يذكّرني أنك ما زلت هنا.

12 شباط 2022